

185547 - هل قولنا للعاصي المستتر بمعصيته " استح من الله كما تستحيي من الناس " خطأ ؟

السؤال

لقد أعجبتني إجابة السؤال رقم (101539) لقد عرضتموه بشكل جميل ، وأكثر ما أعجبنى هذه العبارات التي تلامس شغاف القلب " الأمر الأول : هو أن نسألك : هل تستطيع فعل العادة السيئة أمام أهلك وإخوانك ؟ هل تستطيع فعلها أمام أصدقائك وجيرانك ؟ وهل تستطيع فعلها أمام أحد من العلماء أو الصحابة ؟ نجزم عنك بأن الجواب : لا ، لا أستطيع ، ولو بلغت الشهوة مني مبلغها ، أليس كذلك ؟ حسناً ، هل تعلم أنك تفعلها أمام رب السموات والأرض؟! هل تعلم أن خالق الكون يراك وأنت تفعلها؟! هل تعلم أنك تفعلها والملائكة الكرام الكتبة يرونك؟! فكيف لم تفكر في ذلك ؟ كيف جعلت الله تعالى أهون الناظرين إليك؟ " . أخي العزيز أرجو تصحيحي إن كنت مخطئاً ، فعلى الرغم من جمال هذه العبارات ، لكن ألا ترون أنكم قرنتم فيها تعظيم الخلق بتعظيم الخالق ، حين جعلتم احترام الناس عند التخلي من هذه المعصية كاحترام الله تعالى والتخلي منه ؟ فليس كل ما يتخفى الشخص عن فعله أمام الملائكة ، يتحرج من فعله أمام الخالق ، فجماع الرجل لامرأته مثلاً أمر يستحيي الناس من فعله علناً ، أو حتى الحديث عنه ، لكنه قربة وأجر عند الله . إنني لا أحاول تصيد الأخطاء وإنما حاولت فقط تصحيح ما بدا لي أنه من قبيل الخطأ ، لا شك أنكم تتفقون معي أن مقدار ما نظهره من احترام وتعظيم لله تعالى يفوق بكثير ما نظهره للناس ، وبالتالي فلا داعي للتمثيل والمقارنة بين هذا الاحترام وهذا ؛ فإنه سبحانه ليس كمثله شيء . سامحوني إن كنت قد أخطأت في الفهم ، راجياً منكم التوضيح والتبيين .

الإجابة المفصلة

الحمد لله.

نشكر لك حرصك على الفائدة ، ونثني على دقة فهمك لما نجيب به ، ومع تقديرنا لنفدك الكريم للجواب السابق ، فلا يظهر لنا صوابه ؛ فهناك فرق بين ما ذكرته من حال الرجل مع أهله ، وما أردناه في الجواب من تذكير المرء باطلاع ربه تعالى عموماً أو عند الطاعة أو عند المعصية ، فمن حَقَّق منزلة المراقبة أورثه ذلك إتقاناً للطاعة وابتعاداً عن المعصية لما تحققه تلك المنزلة في قلبه من التعظيم والخوف لربه عز وجل ، وفي حديث جبريل المروي في الصحيحين قال النبي صلى الله عليه وسلم عن " الإحسان " : (أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ) فإذا استشعر المسلم المتعبد لربه تعالى مراقبة الله تعالى له وهو يتعبده كان ذلك أدعى لإتقان العبادة والإخلاص فيها .

ومثله يقال في جانب المعصية السرية وأن النفس تأبى فعلها بحضور الناس فيحرص العاصي على الاستتار عن الناس وفعلها بعيداً عن أعينهم ومراقبتهم ، إما في الظلام أو في غرفة وحده يُغلق عليه أبوابها ويرخي ستورها ، وهذا الذي يحتاج للتذكير

بمراقبة الله تعالى له وأنه كما حرص على عدم رؤية الناس له وهو يرتكب المنكر ، فאלله تعالى أولى أن يستحي منه وفي مثله أوصى بعض السلف بقوله " لا تجعل الله تعالى أهون الناظرين إليك " ، وفي مثله قال أبو محمد عبد الله بن محمد الأندلسي القحطاني في " نونيته " :

وإذا خلوتَ بريبة في ظلمة *** والنفس داعية إلى الطغيان

فاستحي من نظر الإله وقل لها *** إن الذي خلق الظلام يراني

ولسنا نريد في إجابتنا إلا هذا ، وإلا فنحن نعلم أن كثيرين يرتكبون معاصي وآثام لا نذكرهم بمثل الأمر كالذي يشرب الدخان علناً ، ويحلق لحيته ، بخلاف من يفطر في رمضان سراً ، أو من ينظر إلى المحرمات في بيته على حاسوبه أو جواله ، فما ذكرناه من التذكير بمنزلة مراقبة الله تعالى لم نرد به إلا هذا ولم نرد به من يفعل المنكر مجاهرة به ، ولم نرد به من يجب عليه الاستتار عن الناس إذا فعله كمن يقضي حاجته ، وكم من يجامع أهله فإن الحرام في هذا هو فعل هذا أمام الناس . ويدخل في هذا الباب " العادة السرية " فهي من المعاصي التي يحرص العاصي على فعلها سراً وهو في هذا يقدم الخوف والحياء من الناس على الخوف والحياء من الله تعالى ، ويحسن بنا - والحالة هذه - تذكيره بالحياء من الله واطلاع الله تعالى عليه ؛ لتركها حياءً من الله أو تخويفاً منه عز وجل .

بل إن صاحب هذه المعاصي وأمثالها ، يكره جداً أن يعلم كرام الناس عنه ذلك ، ويستحي من معرفتهم بذلك عنه ، حتى ولو لم يروه مباشرة ؛ وأما شأن الرجل مع امرأته فيختلف عن ذلك ؛ فمن ذا الذي لا يعرف أن بين الرجل وامرأته ما بينهما ، وأنه يفضي إليها ، وتفضي إليه ؛ وإن كان لا يتكلم بذلك ، ولا يذكره ، لكنه يعلم أن هذا شأنه وشأن الناس جميعاً ، وهكذا الناس كلهم يعلمون .

وقد جاءت الشريعة بمثل هذا الذي قلناه في جوابنا الأول ونوضحه هاهنا ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم لما سئل عن كشف العورة خالياً قال (اللَّهُ أَحَقُّ أَنْ يُسْتَحْيَا مِنْهُ مِنَ النَّاسِ) رواه الترمذي (2794) ، وأبو داود (4017) ، وابن ماجه (1920) وحسنه الألباني في " صحيح الترمذي " ، وهذا تذكير للمسلم أن رؤية الله تعالى له أحق أن يكون لها وقع على قلبه وفي حياته ، فلا يفعل المنكر والمعصية خالياً كما لا يفعله أمام الناس ، فصارت النصيحة في هذا لا تصلح إلا لمن فعل معصية في الخفاء والسر بعيداً عن نظر الناس حياءً منهم ، فيقال له هنا ما قاله صلى الله عليه وسلم : (اللَّهُ أَحَقُّ أَنْ يُسْتَحْيَا مِنْهُ مِنَ النَّاسِ) . قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين - رحمه الله - : " أحياناً إذا رآك الذي يشرب الدخان عرف أنه وقع في منكر واحترمك وأخفاه ، هل نقول : هذا يكفي عن نصيحتك إياه ؟ ربما نقول : يكفي ؛ لأن الرجل عرف أنك تنكر هذا الشيء ، ولهذا استحيا منك وأخفاه ، وقد يقال : إنه الآن حانت الفرصة إلى أن توجهه وتقول : يا أخي ! إذا كنت الآن تستحي مني ، فحياؤك من الله أولى ، الله أحق أن يستحيا منه ، ويكون هذا فرصة لك لتدعوه " انتهى من " لقاء الباب المفتوح " (176 / جواب السؤال رقم 20) .

وفي الباب أيضاً حديثان عن النبي صلى الله عليه وسلم ، نرجو التأمل فيهما وفي كلام العلماء في شرحهما ليتبين لك صحة ما ذكرناه في جوابنا الأول .

1. عَنْ سَعِيدِ بْنِ يَزِيدَ الْأَزْدِيِّ أَنَّهُ قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " أَوْصِنِي ، قَالَ : (أَوْصِيكَ أَنْ تَسْتَحِيَ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ كَمَا تَسْتَحِيَ مِنَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ) .

رواه الإمام أحمد في " الزهد " (46) والبيهقي في " شعب الأيمان " (6 / 145) والطبراني في " المعجم الكبير " (7738) وصححه الألباني في " الصحيحة " (741) .

قال المناوي - رحمه الله - : " (أوصيك أن تستحي من الله كما تستحي من الرجل الصالح من قومك) قال ابن جرير : هذا أبلغ موعظة وأبين دلالة بأوجز إيجاز وأوضح بيان ؛ إذ لا أحد من الفسقة إلا وهو يستحي من عمل القبيح عن أعين أهل الصلاح وذوي الهيئات والفضل ، أن يراه وهو فاعله ، والله مطلع على جميع أفعال خلقه ، فالعبد إذا استحي من ربه استحياؤه من رجل صالح من قومه : تجنّب جميع المعاصي الظاهرة والباطنة ، فيا لها من وصية ما أبلغها وموعظة ما أجمعها " انتهى من " فيض القدير " (3 / 74) .

2. وعن أبي أمامة قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : (أَفْشِ السَّلَامَ وَابْذُلِ الطَّعَامَ وَاسْتَحْيِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى كَمَا تَسْتَحْيِي رَجُلًا مِنْ رَهْطِكَ ذَا هَيْئَةٍ) .

رواه الطبراني في " المعجم الكبير " (8 / 228 ، رقم 7897) .

ورواه البزار في " مسنده " (7 / 89 ، رقم 2642) بلفظ (وَاسْتَحْيِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى كَمَا تَسْتَحْيِي رَجُلًا مِنْ رَهْطِكَ ذَا هَيْئَةٍ) .
الحديثان فيهما كلام لكن يحسن أحدهما الآخر ، وصححه الألباني في " السلسلة الصحيحة " (3559) .

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي - رحمه الله - بعد أن ذكر حديث معاذ - : " وهذا هو السبب الموجب لخشية الله في السر ؛ فإن من علم أن الله يراه حيث كان ، وأنه مطلع على باطنه وظاهره وسره وعلايته ، واستحضر ذلك في خلواته : أوجب له ذلك ترك المعاصي في السر ، وإلى هذا المعنى الإشارة في القرآن بقوله تعالى (وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) النساء/ 1 .

والمقصود : أن النبي صلى الله عليه وسلم لما وصّى معاذاً بتقوى الله سرّاً وعلانية أرشده إلى ما يعينه على ذلك ، وهو أن يستحي من الله كما يستحي من رجل ذي هيبة من قومه ، ومعنى ذلك : أن يستشعر دائماً بقلبه قرب الله منه ، وإطلاعه عليه ، فيستحي من نظره إليه ، وقد امتثل معاذ ما وصّاه به النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان عمر قد بعثه على عمل فقدم وليس معه شيء ، فعاتبته امرأته فقال : " كان معي ضاغط " يعني : من يضيق عليّ ويمنعني من أخذ شيء وإنما أراد معاذ ربّه عز وجل ، فظننت امرأته أن عمر بعث معه رقيباً فقامت تشكوه إلى الناس ، ومن صار له هذا المقام حالاً دائماً أو غالباً ، فهو من المحسنين الذين يعبدون الله كأنهم يرونه ، ومن المحسنين الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللّم " انتهى من " جامع العلوم والحكم " (ص 161 - 163) .

وانظر جواب السؤال رقم (106249) فهو مهم ، وفي الباب نفسه .

والله أعلم